

حضور الراهن في الرواية الجزائرية المعاصرة

بين التخيل والتاريخ

The Presence of the Present in the Contemporary Algerian Novel
Between Fiction and History

د. خميسة مزيتي

د. إيمان مرداسي*

جامعة عباس لغرور – خنشلة- (الجزائر)

جامعة عباس لغرور – خنشلة- (الجزائر)

mezite.khemissa@univ-khenchela.dz

merdaci.imene@univ-khenchela.dz

تاريخ القبول: 2025-12-10

تاريخ التقييم: 2025-11-14

تاريخ الارسال: 2025-10-15

الملخص

تعددت أشكال الكتابة وتنوعت منذ العصرين اليوناني والإغريقي بين ما هو شعري – كالشعر الملحمي والشعر التمثيلي... وما هو نثري-كالمسرحية والقصة والمقال...، وبقيت هذه الأجناس ترتقي وفق سيرورة معينة تتقصى راهنها دون اخلال بعنصر الخيال الذي أضفى نفسا مميزا على هذه الأجناس منذ بداياتها، وتعد الرواية أكثر الأنواع أو الأجناس الأدبية تداولاً، وأرقاها مكانة، بالرغم من تعدد أنواعها ومواضيعها ومراحلها في الأدبين العربي والغربي .

إن التنوع الذي عاشته الرواية العالمية بصفة عامة، والعربية بصفة خاصة من حيث الأنواع والمواضيع والرؤى، جعلتها من أكثر الأنواع أو الأجناس الأدبية شيوعاً ومكانة لدورها الهام الذي تلعبه في محاكات الواقع دون زيف أو تحريف مع مراعاة نوع من التنميق اللغوي الذي تحدثه بعض الوقائع الخيالية التي تضيف نوعاً من التشويق على العمل الروائي، لقد كانت الرواية الجزائرية ولا تزال سباقة لنقل الواقع والأحداث بمصادقية يتخللها بعض الخيال الذي لا ينقص من حضور الراهن؛ لذلك وقع الاختيار على كتابات العشرية السوداء لما تحمله من أحداث ووقائع سعى المبدع الجزائري إلى توثيقها عن طريق الرواية، وسنحاول تقصي حضور الراهن بين الخيال والواقع من خلال رواية جزائرية؛ وهي رواية "الورم" لمحمد ساري كنموذج لهذا الجهد الذي بذلته الرواية الجزائرية في كتابة

الراهن ومزاوجتها بين الخيال والواقع خلال العشرية السوداء، ومن هنا يمكن طرح جملة من التساؤلات أهمها ما معنى الراهن؟ كيف تجلّى حضور الراهن في الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة؟ كيف كان دور الرواية الجزائرية في محاكات الراهن؟ ما هي أهم الكتابات الروائية أثناء العشرية السوداء التي حاولت نقل الراهن بالرغم من مزاجتها بين الخيال والواقع؟ ما هي طرائق نقل الراهن في رواية "الورم" لمحمد ساري؟. الكلمات المفتاحية: الرواية، الرواية الجزائرية، الراهن، الخيال، الواقع.

Abstract:

Writing forms have multiplied and diversified since the Greek and Roman eras, ranging from poetic forms—such as epic poetry and dramatic poetry—to prose forms—such as plays, short stories, and essays. These genres have continued to evolve according to a specific process that explores their present without compromising the element of imagination, which has lent these genres a distinctive spirit since their inception. The novel is the most widely used literary genre and the most prestigious, despite the diversity of its types, themes, and stages in both Arabic and Western literature.

The diversity that the international novel in general, and the Arab novel in particular, has experienced in terms of genres, topics, and visions, has made it one of the most popular and prestigious literary genres due to its important role in simulating reality without falsification or distortion, while taking into account a kind of linguistic embellishment caused by some fictional events that add a kind of suspense to the novelistic work. The Algerian novel has been and still is a pioneer in conveying reality and events with credibility interspersed with some imagination that does not detract from the presence of the present; therefore, the choice fell on the writings of the Black Decade for what they contain of events and

facts that the Algerian creator sought to document through the novel. We will attempt to investigate the presence of the present between imagination and reality through an Algerian novel; it is the novel "The Tumor" by Mohamed Sari as a model for this effort made by the Algerian novel in writing the present and combining imagination and reality during the Black Decade. From here, a number of questions can be raised, the most important of which is: What is the meaning of the present? How was the presence of the present manifested in the Arab novel in general and the Algerian novel in particular? What was the role of the Algerian novel in simulating the present? What are the most important novels from the Black Decade that attempted to convey the present, despite their combination of fiction and reality? What are the methods of conveying the present in Mohamed Sari's novel "The Tumor?"

Keywords: Novel, Algerian novel, present, fiction, reality.

*المؤلف المراسل:

يعد السرد غريزة إنسانية سعى إليها الإنسان منذ أن عرف الحياة الاجتماعية وما يرتبط بها من رغبة في تكوين علاقة مع الآخر من خلال الحاجة الملحة لعملية الحكي، وهنا جاءت الرواية كشكل من الأشكال الأدبية التي تقوم على مبدأ السرد، لذلك وجب علينا أن نتعرف أكثر على مفهوم الرواية باعتبارها شكل من أشكال التعبير. وتعرف الرواية بأنها "شكل أدبي متميز، له ملامحه الخاصة، وقسماته الواضحة، هذا الشكل يتخذه بعض الأدباء وسيلة للتعبير عما يريدون التعبير عنه، أو هيكلًا لتصوير ما يرغبون في تصويره من أشخاص، أو أحداث، أو مواقف"

.¹

تعد الرواية من أقدم الأنواع الأدبية في التراث العلمي، لذلك وجب علينا أن نفرق في هذا المقام بين مرحلتين من تطور الرواية: أولها المرحلة البدائية لفن القص في الآداب العالمية؛

فقد "كانت القصة في البدء حكاية لمغامرات غير عادية وغير مشابهة للحقيقة، محورها الحب، وهذا ما جرى عليه الأدب اليوناني حتى نهاية القرن الأول الميلادي..."; لقد حاولت هاته القصص والحكايات والأساطير أن تضع اللبنة الأولى التي أسست لفن الرواية في ما بعد، إلا أن هذا الفن لم يجد البيئة المناسبة له إلا مع ظهور الحداثة في الأدب وذلك مع مطلع القرن السابع عشر وما حملته هذه المرحلة من تطورات مست مختلف الأجناس الأدبية شعرا كانت أم نثرا وذلك عن طريق ظهور الطباعة والصحافة وغيرها من الوسائل التي حاولت أن تعطي نفحا جديدا لهذا الفن، أما في ما يخص القرن العشرين فيعد مرحلة النشوء الفعلي لفن الرواية في الوطن العربي؛ حيث تعد رواية "زينب" سنة 1914م لمحمد حسين هيكل أول رواية عربية حقيقية حملت جميع الخصائص الفنية لفن الرواية في الوطن العربي، ثم توالى الأعمال بعد ذلك على يد الرواد أمثال طه حسين، توفيق الحكيم، أحمد أمين، وغيرهم.

أما في الأدب الجزائري فقد كان ظهور فن الرواية محتشما إلى حد بعيد، حيث يمكن الحديث عن مرحلتين كبيرتين لفن الرواية في الأدب الجزائري؛ وهما مرحلة كتابات ما قبل الاستقلال ومرحلة كتابات ما بعد الاستقلال، حيث حاولت كل مرحلة من هاتين المرحلتين أن تحاكي راهن الجزائر متخذة أشكال وطرائق عديدة.

إن ارتباط فن الرواية في الجزائر براهنها كان نتاج للظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي عاشتها الجزائر، بالرغم من أن الجزائر قبل الاحتلال كانت تملك مؤسسات ثقافية تتماشى وواقع الإنسان الجزائري؛ حيث "كانت ثقافة الجزائر، من قبل إسلامية عربية، وكان لهذه الثقافة كيائها وعناصرها المستمدة من الدين والعلم والتقاليد القومية والاجتماعية، وكان لها مراكز ومؤسسات شعبية منها المدارس وهي بمستوى المدارس الابتدائية و 'الزوايا' وهي المراكز الدينية التي تعد الطلاب للالتحاق بالجامعات الإسلامية كالأزهر في مصر، والزيوتونة بتونس، وجامع القرويين بالمغرب"²، غير أنه ومنذ نزول المستعمر الفرنسي في سيدي فرج سعى جاهدا إلى طمس الثقافة والهوية الجزائرية ومحو المقومات الإسلامية بشق الطرق والوسائل كتحويل الأماكن الدينية إلى ثكنات ومستشفيات

عسكرية، مع منع كل التجمعات وسعت إلى اعتماد سياسة التجهيل وغلق المساجد والزوايا، حيث يقول أحد المستشرقين: "إن المساجد والزوايا مقتصرة على تعليم القرآن الذي يحفظه التلميذ عن ظهر قلب، أما المدارس التي يستطيع أن يتعلم فيها مواد أخرى، فعددها محصور جدا، ويبدو أن هذا العدد يتناقص باستمرار".³

يعتبر مصطلح الراهن من المصطلحات الفضفاضة التي يصعب تحديدها وتقنيها تحت مفهوم واحد وثابت، غير أن المتعارف عليه أن مصطلح الراهن ارتبط ارتباط وثيق بالواقعية وقدرته على نقل الوقائع دون تزيف أو تحريف، فالواقعية في الأدب كمذهب أدبي تقترب إلى حد بعيد من المفهوم الذي يحمله مصطلح الراهن، حيث تعرف الواقعية بأنها مذهب من المذاهب التي تدعو إلى تسجيل الملاحظات والمشاهدات من غير أن يلونها الأديب أو الكاتب بأحاسيسه وعواطفه الخاصة، مع عناية تامة للموضوعية، أي عدم ادراج أي ذاتية في عملية نقل الراهن.

لقد تأثرت الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة باعتبارها شكلا من أشكال التعبير البشري بما قدمه المذهب الواقعي من نقلا للأحداث، هذا التأثير الذي عاشته الرواية الجزائرية الذي يظهر بشكل واضح مع روايات السبعينات من القرن العشرين؛ حيث ساهمت الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي يعيشها الفرد الجزائري في "...ظهور المذهب الواقعي الذي وجد فيه الكتاب على اختلاف ميولهم وثقافتهم مجالا للتعبير عن واقع البلاد بما فيه من متناقضات وعزلة وحرمان"⁴، وظهر ذلك جليا من خلال أعمال عبد الحميد بن هدوقة، الطاهروطار،...

إلا أن العديد من كتاب الرواية أجمعوا بأن الرواية الجزائرية لم تنجح إلا بعد جمعها بين الراهن (الواقع) وبين التجربة الخاصة للمبدع، وهذا لا يعني دمج ذاتية المبدع في عملية الكتابة؛ إنما هي التجربة المستنبطة من الاندماج مع الناس ومشاطرته لمشاكلهم، فهي إذن ليست انفصالا عن الواقع الإنساني بل هي معايشة حية له.⁵

1- تطورات الرواية الجزائرية وارتباطها براهنها:

تعد الرواية باعتبارها جنسا أدبيا نثريا قائم بذاته شكلا فعالا من أشكال التعبير التي يعتمد عليها صاحبها لفضح الظروف السياسية والاجتماعية، والثقافية،..... وغيرها؛ حيث يحاول من خلالها صاحبها نقل راهنه وتصوير مدى تأثيره على الفرد والجماعة، فلا يمكن لأي أديب أن يعيش أوجاع بلده دون أن يحرك قلمه ليجسد من خلال روايته أحاسيسه ومشاعره لأنها السلاح الوحيد الذي يمتلكه في مجابهة الراهن، وهذا ما حدث في الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة منذ نشأته إلى يومنا هذا؛ فقد ظلت الرواية الجزائرية خلال مراحلها المختلفة وتشعباتها المتنوعة تحاكي راهنها بما لا يتنافى والعناصر الفنية للرواية عامة.

أ- الرواية الجزائرية الكولونيلية:

تعتبر رواية "غادة أم القرى" لأحمد رضا حوحو الصادرة سنة 1947م النواة الحقيقية لفن الرواية في الأدب الجزائري، ثم توالى الأعمال الروائية بعد ذلك منها: "الطالب المنكوب" لعبد المجيد الشافعي سنة 1947م "ليلي الفتاة الجزائري" لـ جميلة دباش عام 1948م، ثلاثية محمد ديب "الحريق" سنة 1954م و"الدار الكبيرة" عام 1957م و"مهنة الحياكة"، "نجمة" لـ كاتب ياسين، "نجمة" لـ مولود معمري سنة 1956م، رواية "الحريق" لنور الدين بوجردة عام 1957م "الانطباع الأخير" لـ مالك حداد عام 1958م، "صيف إفريقي" لـ محمد ديب سنة 1959م وقد حملت هذه الأعمال وغيرها مضامين اجتماعية وسياسية وثقافية متنوعة؛ فقد ارتبطت الرواية الجزائرية في هذه المرحلة بالظروف السياسية والثقافية والاجتماعية القاهرة التي عاشتها بلادنا، فقد حاولت أغلب الأعمال الروائية في هذه الفترة أن تصف الراهن الذي تعيشه الجزائر وغيرها من البلدان العربية التي تأن تحت وطأة الاستعمار؛ إن هذا الانفتاح على الواقع الذي عاشه الروائي الجزائري كان ضرورة تملئها روح العصر والأوضاع في تلك الفترة بالرغم من ضعفها الفني، هذا الملاحظة التي أشار إليها عبد الله ركيبي في كتابه "تطور النثر الجزائري

الحديث" حين قال بأنه: " يمكن أن نلاحظ بدايات ساذجة للرواية العربية الجزائرية سواء في موضوعاتها أو في أسلوبها أو في بنائها الفني...."⁶.
وقد تميزت أعمال هذه المرحلة بارتباطها الوثيق براهنها ويظهر ذلك جليا من خلال التركيز على مظاهر البؤس والحرمان والشقاء وتفشي الأمراض والأوبئة والفقر والحرمان والجوع الذي عاشه الشعب الجزائري في هذه المرحلة.

ب- الرواية الجزائرية الما بعد الكولونيالية:

إن الدمار السياسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي،.....الذي خلفه الاستعمار الفرنسي في الواقع الجزائري انعكس سلبا على ميلاد الرواية الفنية الحقيقية المتكاملة في الأدب الجزائري؛ حيث تأخر ظهورها إلى مطلع السبعينيات من القرن الماضي، وقد تميزت هذه المرحلة بالنهوض الفعلي بفن الرواية المكتوبة باللغة العربية على الصعيدين الفني والموضوعي، ويتجلى ذلك من خلال التركيز على راهن الجزائر الذي ألقى بظلاله على الإنتاج الروائي الجزائري في هذه المرحلة؛

حيث شهدت الرواية الجزائرية في هذه المرحلة استفاقة نوعية لم يعرفها المشهد الروائي من قبل؛ وهذا كان نتاج التغيرات التي عاشتها الجزائر في هذه المرحلة "فقد مثلت الجزائر نموذجا لأزمة الوطن والمواطن في العالم العربي، حيث قدم هذا البلد أكثر من مليون شهيد لنيل استقلاله، ثم تبنى سياسات التعريب، والعودة لأحضان الثقافة العربية والإسلامية"⁷، فبرز العديد من كتاب الرواية بأعمال فذة مثلت الميلاد الحقيقي لفن الرواية في الأدب الجزائري الحديث أمثال رواية "اللاز" عام 1974 م و"الزلزال" عام 1974 م، رواية "رمانة" 1971 م ل طاهر وطار، عبد الحميد بن هدوقة في رواية "ريح الجنوب" عام 1971 م، ورواية "نهاية الأمس" سنة 1975 م لعبد الحميد بن هدوقة أيضا، مرزاق بقطاش في روايات "طيور في الظهيرة" عام 1976 م ، ورواية "جراد البحر" عام 1978 م، رواية "يوميات مدرسة حرة" عام 1979 م ل زهور ونيسي، وسيني الأعرج، أمين الزاوي،.....وغيرهم ممن أبدعوا في هذا الجنس الأدبي ومثلوا الواقع بكل بساطة وعفوية ناقلين راهن الجزائر دون زيف أو تحريف مع مراعاة نوع من الزخرف الفني الذي لا يخل براهن الجزائر، لقد كان للأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية الأثر الكبير في تأخر ظهور الرواية في الأدب الجزائري، وذلك إذا ما

قارنه بالأدب العربي لأن الاستعمار الفرنسي حاول طمس الهوية العربية وفرض ثقافته بشتى الطرق لذلك كانت الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية أسبق في الظهور من الرواية المكتوبة باللغة العربية، وقد كان حضور راهن الجزائر من خلال معالجة آثار الثورة الجزائرية وما ترتب عنها من آثار نفسية واجتماعية وثقافية للمجتمع الجزائري على مختلف طبقاته وانتماءاته، وقد تميزت الرواية في هذه المرحلة بالشجاعة والجرأة في طرح الراهن والواقع، وساهمت الأعمال في تأسيس الأرضية الروائية التي عايشها راهن الجزائر بمختلف تشعباته وتمفصلاته.

أما في ثمانينيات القرن العشرين فقد بقيت الرواية الجزائرية تسير وفق وتيرة منتظمة نحو القمة عن طريق مجموعة من الرواد اللذين واصلوا مسيرتهم التي بدؤوها من قبل، ومن أشهر الروايات في هذه المرحلة: واسيني الأعرج في "وقع الأحذية الخشنة" سنة 1981م ورواية "نوار اللوز" سنة 1982م، الطاهر وطار من خلال روايات "العشق والموت في الزمن الحراشي" عام 1982م، ورواية "عرس بغل" سنة 1983م لطاهر وطار أيضا، رواية "على جبال الظهرة" عام 1983م و"السعير" عام 1986م ل محمد ساري، روايات "الموسم والبحر" عام 1986م و"قفزة في الظلام" 1986م ل مرزاق بقطاش، عبد الحميد بن هدوقة في روايات "بان الصبح" عام 1980م ورواية "الجازية والدراويش" سنة 1983م، رواية "الانفجار" عام 1983 و"هموم الزمن الفلاقي" عام 1986م ل محمد مفلح، رشيد بوجدرية في "التفكك" سنة 1982م و"معركة الزقاق" سنة 1986م وغيرها، إن الظروف والأوضاع التي عاشها المبدع الجزائري أثرت بطريقة أو بأخرى في إنتاجه الثقافي، فقد "انفجرت الأزمة في منتصف الثمانينيات: بطالة، وغلاء، وفساد، لينتهي الأمر إلى حرب شبه أهلية، أتت على الأخضر واليابس، في مواجهة دامية بين العسكري والعلمانيين الذين ساندوهم وبين الإسلاميين"⁸.

وقد أكدت أمانة بلعلي أن هذه الفترة شهدت "توجها جديدا في الكتابة، بدأ بالاستغراق في الواقع، بتعريضه والكشف عن مظاهر التعفن السياسي والاقتصادي والاجتماعي....."⁹، فقد تميزت الرواية في هذه المرحلة بظهور ما عرف بالرواية الواقعية النقدية: هذا النوع من

الكتابة الذي كان نتاج للتحويلات السياسية والثقافية الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الجزائري.

2-حضور الراحلين في روايات العشرية السوداء-رواية "الورم" ل محمد ساري نموذجاً:-

مع حلول التسعينيات تغيرت الأوضاع التي كان يعيشها الإنسان الجزائري؛ وذلك مع بداية ما عرف بالعشرية السوداء، تلك الظروف السياسية القاهرة التي مرت على الجزائريين وأثرت بطريقة أو بأخرى على الروائيين باعتبار أن الإنسان ابن بيئته، وظهرت العديد من الروايات التي حاكت الواقع الاجتماعي والسياسي، والثقافي،...للجزائريين أشهر الكتابات الروائية في هذه المرحلة: "الشمعة والدهاليز" عام 1995م، و"الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" 1999م ل الطاهر وطار، رواية "غدا يوم جديد" سنة 1992م ل عبد الحميد بن هدوقة، "أغنية البعث والموت" 1993م ل مرزاق بقطاش...

لقد تميز الأدب الذي أنتجته هذه الأزمة التي مرت على الجزائر والجزائريين على حد سواء بطابع خاص ميزه عن باقي الانتاجات الروائية في المراحل الأخرى؛ هذه الأعمال التي حاولت الاقتراب من الواقع وتبسيط الضوء على أحوالهم وأوضاعهم، لذلك تعددت تسمياتها وتنوعت بين روايات المحنة، روايات العشرية السوداء، روايات العنف، روايات التسعينات،

لقد بدأت أزمة العشرية السوداء تلوح في الأفق مع أكتوبر 1988م؛ فقد كان لهذه الأزمة البداية الفعلية للفتنة الوطنية الجزائرية الكبرى، وهو انفجار لم يأت صدفة بل جاء نتيجة احتقان شديد في الحياة السياسية وفساد كبير في الإدارة والاقتصاد وتداخل ذوي النفوذ من الأشخاص والمؤسسات، مما جعل المواطن ينظر إليها نظرة شك وارتياب انتهت بفقد الثقة كليا بكل ما له علاقة بالسلطة...، وهنا انتقلت الرواية الجزائرية إلى مرحلة جديدة في نقل الراحلين تبعاً للتحويلات السياسية والثقافية الكبرى التي عاشتها الجزائر مطلع تسعينيات القرن العشرين؛ وكان ذلك نتاج حتي لتصاعد موجة العنف والإرهاب، هذا الوضع "الذي لا يمثل حدثاً بسيطاً في حياة أي مجتمع، وقد لا يقاس بالمدة التي يستغرقها ولا بعدد الجرائم التي يقتربها، بل بفضاعتها ودرجة وحشتها، وعندما يتعلق الأمر بالجزائر فإن الإرهاب تقاس خطورته بتلك المقاييس جميعاً، لأنه استغرق مدة غير قصيرة

وارتكب جرائم كبيرة ¹⁰، وهنا جاء دور الرواية لتكون بمثابة مرآة عاكسة لراهن الجزائر بكل جرأة وواقعية، فأصبحت المحنة التي تعيشها الجزائر الشغل الشاغل للمبدع، والمتقف، والصحفي، والأديب،..... الجزائري الذي أصبح أكثر استهدافا للتصفية الجسدية والمعنوية والفكرية والإيديولوجية ...، فتحوّلت الكتابة إلى ساحة كبرى ينتفض بها الكاتب لهول ما ارتكب من جرائم ومجازر ضد الشعب الجزائري، في حرب لا يمتلك فيها لا ناقة ولا جمل مثلما وقع للروائي مرزاق بقطاش ومحاولة اغتياله عام 1993م، حيث سؤل مرة "عن سبب انضمامه إلى المجلس الاستشاري، فقال بأن الكاتب يتحدث كثيرا، وينتقد السلطة دوما، وها قد جاءت مناسبة تجسد تلك الأحلام على أرض الواقع، طلبوا منه الانضمام فوجدها فرصة سانحة لممارسة السياسة بأخلاقه العالية، وطيبته الساذجة التي اعتقدت بأن النداء كان فعلا لإنقاذ البلاد من الخطر المحدق بها وليس انقاذ مصالح فاشية...."¹¹، وبالرغم من تعدد الروايات الجزائرية التي تمخضت في رحم المحنة الجزائرية مرحلة العشرية السوداء إلا أنها حملت نفس الخصائص والسمات، أهمها:

انفتاح الرواية على عديد الأجناس والفنون الأخرى كتوظيف الشعر عند أحلام مستغانمي في روايتها "فوضى الحواس".-

- تميزت لغة روايات المحنة بالسهولة والبساطة لما تحمله من أوجاع وآلام.

- الإبقاء على نهاية أغلب الروايات هذه الفترة مفتوحة ومعلقة دون إعطاء حلول.

- التركيز على الطبقة المثقفة والفعالة في المجتمع الجزائري بمختلف انتماءاته لأنها كانت الطبقة الأكثر عرضة للقمع والإبادة؛ كشخصية المعلم كريم بن محمد في رواية "الورم" لمحمد ساري.

- المزج بين اللغة العربية الفصحى والعامية في أحيان كثيرة لما تحمله العامية من قدرة للوصول إلى المتلقي ووصف الراهن بكل بساطة وعفوية.

- تمحور أغلب الأعمال الروائية زمن المحنة حول موضوع واحد هو الموت والهلاك والزوال وهذا ما نجده في أعمال روائية كثيرة، كرواية "دم الغزال" لمرزاق بقطاش مثلا.

حضور الراهن في رواية "الورم" لمحمد ساري كنموذج لكتابات المحنة: *

تعتبر رواية "الورم" لمحمد ساري* من أهم روايات العشرية السوداء؛ حيث أن الرواية كتبت سنة 1995م في أوج الأزمة السياسية التي كانت تعيشها البلاد، إلا أنها لم تنشر إلا بعد انقضاء هاته السنوات العجاف وبالتحديد عام 2002م، لقد أملت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي كانت تعيشها بلادنا على المبدع والابداع على حد سواء مجموعة من المواضيع التي لا تخرج عن راهن الأزمة لأنه وكما ذكرنا سابقا يبقى الأديب لسان حال المجتمع يقف إلى جانبه في أفراحه وأفراحه، " وقد أكد الباحث مصطفى المويقن على دور تأثير الراهن واليومي في ازدهار الرواية العربية والرواية الجزائرية التي ظلت هي الأخرى رهينة الواقع، تشتغل على الآني وترصد تأزمات فترة التسعينات بشكل واقعي"¹²، وهذا ما حدث في رواية "الورم" لمحمد ساري، والتي استقي موضوعها الكاتب من صميم الأزمة وإن لم يفصح عن الأسماء الحقيقية والأماكن الحقيقية لها بل حاول أن يركز فيها على مدى بشاعة راهن الجزائر في هذه الفترة.

ويمكن تقصي الراهن داخل رواية "الورم" من خلال عدة جوانب أهمها:

أ- من حيث الموضوع:

لقد تبنى الروائي محمد ساري في روايته "الورم" موضوعا واحدا هو الموت خلال فصول الرواية؛ حيث قسمها إلى ثمانية عشر فصلا وهو مظهر من مظاهر التجديد في فن الرواية في الأدب العربي الحديث، بالرغم أن هناك نوع من وحدة الموضوع خلال فصول الرواية غير أن الكاتب عمد إلى التقسيم للتفريق بين المشاهد الكبرى داخل الرواية، هذا الهاجس الذي أصبح يؤرق الإنسان الجزائري في مرحلة العشرية السوداء وشغله الشاغل، ويظهر تجلي الراهن في هذه الرواية من خلال الزمان والمكان أولا والعنوان ثانيا، لقد كانت الأماكن التي دارت فيها أحداث الرواية واقعية مستنبطة من الواقع كالقرية التي تدور فيها أحداث الرواية وهي قرية واد الرمان، وبوفاريك، البليدة... "كانت الشمس تقترب من المغيب حينما اقترب عبد القادر بن سعيد من محطة البنزين الواقعة في مدخل وادي الرمان عبر الطريق المؤدي إلى بوفاريك..."¹³، كما أشار إلى بعض الأحداث التي حدثت بمدينة البليدة كقوله: "إلى غاية الصبيحة التي أنزل فيها من الشاحنة المغطاة وسط مدينة البليدة..."¹⁴، وفي مقام آخر تحدث محمد ساري على سجن رقان وخروج كريم بن محمد منه: "...فمنذ خروجه من السجن في محتشد رقان، أجبر كريم بن محمد على الحضور كل صباح على الساعة العاشرة إلى مقر الدرك لتسجيل اسمه ولقبه مع الإمضاء في دفتر

خاص¹⁵، أما الزمان فهو أوج الأزمة أو المحنة الجزائرية؛ وهذا ما أقره محمد ساري بحد ذاته في أحد الحوارات التي أجريت معه حيث أقر أنه "انطلق من مجموعة معطيات، وتنقل عبر عدة مناطق وأحياء ومدن، وكانت هي أساس الرواية لجمع المعلومات،.....، وأحداث الرواية واقعية بما في ذلك المعتقل،...."¹⁶، وقد اقتربت الرواية "إلى حد ما من المفهوم الواقعي الفني لا الأيديولوجي للواقعية والتي لا يكون فيها الهدف الأساسي من الرواية هو الإمتاع والتأثير،.... وإنما هي التي تدفع إلى تفكير عميق حول المجتمع،.... وكيف تتحول الأذهان تحت تأثير الظروف المحيطة به"¹⁷.

أما العنوان فيعد البوابة التي ينفتح من خلالها العمل الإبداعي للآخر؛ فهو "... أول مفتاح إجرائي تنفتح به مغالقي النص، كونه علامة سيميوطيقية تضمن لنا تفكيك النص وضبط أنسجته"¹⁸، حيث اختار الروائي محمد ساري لروايته هذه عنوانا مكونا من كلمة واحدة هي "الورم"؛ حيث اختصر الألم والوجع والضعف.... الذي تحياه الجزائر مرحلة العشرية السوداء في مرض عضال ينهش كيائها ولا يستثني صغيرها عن كبيرها، واختيار العنوان هذا دليل صارخ على أن راهن الكاتب تحول إلى مرض فتاك أخذ يتغلغل في أعماق المجتمع الجزائري ويفتك بكل من اعترض طريقه.

ب- من حيث الشخصيات:

تعتبر الشخصية عنصرا مهما في كل عملا روائي؛ فهي المحرك لأحداثه لذلك جاءت رواية "الورم" لمحمد ساري تعج بالكثير من الشخصيات سواء الشخصيات الرئيسية المتمثلة في شخصيتي "كريم بن محمد" هذه الشخصية الفعالة داخل الرواية حيث "وبعد خروجه من المعتقل قرر بدأ حياة جديدة غير أن أصدقاء الطفولة لم يتركه وشأنه حتى انتهى به المطاف بانتمائه إلى الجماعة المسلحة في قريته،.... غرق كريم بن محمد في متاهة متعينة بأنفاقها المتشعبة التي تشكل شبكة دائرية لا مخرج لها"¹⁹، هذه الجماعة التي كان يتزعمها "يزيد لحرش" وهو الشخصية الرئيسية الثانية داخل الرواية، والذي يعتبر صديق طفولة "كريم"، حيث "...تمرد يزيد لحرش وعدد من شباب القرية وشكلوا مجموعة مسلحة لجأت إلى الأحراش والغابات المجاورة"²⁰، أما الشخصيات الثانوية التي لم يمهلهما الكاتب محمد ساري واعطاها حقها خلال أحداث الرواية، واعتبرها بمثابة شخصيات فعالة؛ كشخصية "بوشاقور" وهو عنصر من عناصر يزيد لحرش ويعد الذراع الأيمن لأمير الجماعة، "محمد يوسف" وهو صديق كريم المقرب كما كان يمثل الطبقة المثقفة في القرية فقد كان

يشتغل صحفي، وقد انتهى به المطاف إلى القتل باعتبار أن ما ميز المحنة الجزائرية في هذه الفترة هو استهداف أمثال "محمد يوسف" وتصفيتهم جسديا، شخصية "جميلة" وهي حبيبة كريم بن محمد وأخت محمد يوسف في نفس الوقت، بالإضافة إلى شخصيات أخرى ك: راجح بن سالم، بلقاسم عرفاوي، موح لكحل، أحمد بن دريج (الأفغاني) وهو مفتي الجماعة المسلحة، على بن محمد وهو أخ كريم،.....

كما أن أغلبية شخصيات الرواية مسقاة من الواقع كاسم محمد، جميلة، بلقاسم، موح، راجح.....، وقد أجاد محمد ساري في وضع أسماء الرواية غير أنها لا تتوافق دلالاتها مع شخصيتها؛ كشخصية يزيد الذي يوحي اسمه بالرزانة وبالرغم من ذلك فهو أمير الجماعة المسلحة في القرية، وقد كان هذا نتيجة المفارقات الصارخة التي شهدتها راهن الجزائر في تلك الفترة فأصبح الانسان لا يفرق بين حليفه ومن هو ضده، لأجل ذلك سعى محمد ساري خلال صفحات روايته اعطاء الحرية المطلقة لجميع الشخصيات على اختلاف أبعادها النفسية والجسمانية والثقافية... في التصرف كما أملت عليها أحداث الرواية.

ج- من حيث تعدد اللغة:

إذا كانت اللغة وسيلة تواصل بين المجتمعات فهي في العمل الروائي وسيلة وأداة لتشكيل المعالم الأولى التي تساهم في تبلور هوية العمل الفني، حيث سلطت رواية "الورم" لمحمد ساري الضوء على مرحلة معينة من تاريخ الجزائر وهي فترة العشرية السوداء، والمتصفح لرواية "الورم" لمحمد ساري يلاحظ تمكن كبير للروائي في التعامل مع اللغة داخل الرواية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تمكن الكاتب وقدرته على التعامل مع اللغة، ويظهر ذلك جليا من خلال ما يلي:

1- اعتماد اللغة العامية:

تعتبر رواية "الورم" لمحمد ساري من أهم الروايات الجزائرية التي جسدت بحق الواقع المرير الذي عاشته بلادنا في أوج العشرية السوداء التي شهدتها الجزائر نهاية القرن العشرين؛ تلك الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية... التي انبثقت من روح الأزمة لأنها حاولت محاكات راهن المرحلة من جميع جوانبها؛ وذلك راجع لكون أن " وقائع كثيرة من الرواية حدثت فعلا...، وكثير من القراء اندهشوا لقوة التشابه بين أحداث الرواية وبين ما يجري في الواقع " ²¹.

لقد استعمل الكاتب محمد ساري اللغة العامية في العديد من مشاهد الروائية؛ مثل ما ورد في قول الروائي: "الدنيا اختلطت، ما تعرف خوك من عدوك"²²، "قالوا ناس الزمان الواد إذا حمل ما يفرق بين الحشيشة وجذع الشجرة"²³، "الصراحة راحة، والي في القلب اجيبوا اللسان، الي ما عجوش الحال ايدز معاهم،"²⁴، بالإضافة إلى مصطلحات كثيرة تكرر استعمالها داخل رواية "الورم" وما هي إلا كلمات منبعثة من صلب المجتمع الجزائري مثل: الفورقون، الحقرة، التشينة، القهواجي، الماندرينة، والكمان، القندورة، الشاشية...، إن هذا الاستعمال للعامية في كثير من المواقف مرده أن الكاتب لم يجد في الفصحى المعنى الذي يصور الراهن بكل مصداقية وعفوية فلجأ إلى العامية كملاذ وحيد له.

2- اعتماد لغة القراءان الكريم والخطاب الديني:

إلى جانب اللغة العامية نجد أن القرآن الكريم يعد رافدا مهما من روافد اللغة داخل الرواية العربية عامة والجزائرية خاصة، وبالتحديد ما تعلق بكتابات العشرية السوداء، فالقرآن هو المتنفس الوحيد لأي شخص عندما تضيق به السبل وتتأزم به الأوضاع، حيث اعتمد الروائي محمد ساري النص القرآني كرافد مهم في تشكل المشهد الروائي داخل رواية "الورم" في عديد المشاهد مثل ما ورد في قوله "إن لله وإن ليه راجعون...الله يرحمها برحمته الواسعة..."²⁵، "...امسك الرأس جيدا كي أتمكن من إتقان الذبح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا ذبحتهم، فأحسنوا الذبح..."²⁶، ومن ضمن المواقف التي اعتمد فيها الروائي محمد ساري الخطاب الديني هو عندما اكتشفت جثة محمد يوسف صوفي صحفي القرية الذي تمت تصفيته جسديا "...أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله...ماذا فعل المسكين حتى يذبح بهذه الوحشية ويرمى في هذا الخلاء..."²⁷، لقد اتقن محمد ساري اعتماد الخطاب الديني في روايته "الورم"، لأن هذا المستنقع الذي دخلته الجزائر فترة العشرية السوداء دخلته تحت مطية الدين، لذلك نجد طغيان الخطاب الديني على أغلب الأعمال الروائية ضمن ما عرف بروايات الأزمة أو المحنة.

3- اعتماد اللغة التوثيقية التاريخية:

سعت الرواية الجزائرية ومنذ نشأتها إلى توثيق الأحداث التاريخية بمختلف تشعباتها وتفصيلها، انطلاقا من الرواية الجزائرية الكولونيالية التي تعد وثيقة تاريخية أكثر من كونها عمل فني متكامل لأنها سعت بحق إلى نقل الراهن الذي عاشته الجزائر في تلك الحقبة،

وبقي هذا الملمح حاضرا في الرواية الجزائرية، إلا أنه استفحل مع روايات العشرية السوداء وما أملاه راهن الجزائر من أزمت وتشعبات وأحداث أجبرت المبدع أو الروائي توثيقها عن طريق الرواية باعتبارها مرآة عاكس للمجتمعات، ويظهر حضور اللغة التوثيقية التاريخية في رواية "الورم" في عديد المواقف كتذكر البطل كريم بن محمد والده الذي اتهم بالخيانة كونه كان عميلا لفرنسا حيث يسرد محمد ساري على لسان والد كريم: "...صحيح أن عام 1956م كانت حرب التحرير قد اندلعت، ولكنها بالنسبة إلينا لم تكن تعني شيئا محددا....."²⁸، ويقول كريم في مقام آخر "...أنصور بأنه لو كان عميلا حقيقيا لما بقي في الجزائر بعد الاستقلال، الحركة غادروا البلاد في سنة 62 مع الكولون والجيش الفرنسي..."²⁹ ، كما ذكر الروائي أحدث أكتوبر 1988م، "...فلحسن الحظ جاء أكتوبر وأنقذ الناس من التهجير، مظاهرات أكتوبر أوقفت كل شيء ..." ، "في ذلك اليوم كانت مدينة زرادة تشتعل نارا ودخانا....وهم عازمون على حرق المدينة وتحدي الشرطة والدرك وكل من له سلطة في البلد"³⁰ ، كما لا ننسى حديثه عن بشاعة المشاهد والمواقف التي مرت على الجزائر من خلال اعطاء النموذج بقرية وادي الرمان باعتبارها جزءا من ربوع وطن أثقل كاهله مرض عضال تفشى به كما يتفشى المرض في الجسد الواحد.

وما يلاحظ على رواية محمد ساري "الورم" بأنها رواية الموت والزوال والفناء بامتياز لما تحمله من ألفاظ وكلمات تدل على ذلك، وهذا راجع إلى كون راهن الجزائر استفحلت فيه مثل هذه المشاهد الدموية غرقت فيها الجزائر بدماء أبنائها، ومن أمثلة هذه المصطلحات نجد: القتل، الدم، المواكب الجنائزية، النار، الرصاص، المأساة، الأشباح، الارتعاش، الدفن، الوحشية، الجثة.....

وفي الأخير يمكن القول أن مصطلح الراهن هو مصطلح واسع ومتشعب؛ لما يحمله المصطلح من دلالات ومعاني، وقد حاولت الرواية الجزائرية أن ترتبط براهنها منذ نشأتها، غير أن هذا الارتباط ظهر جليا من خلال الأعمال الروائية التي حاولت نقل بشاعة ما عاشته الجزائر فترة العشرية السوداء، وكانت رواية "الورم" لمحمد ساري أحد هاته الأعمال التي وثقت راهن الجزائر في تلك المرحلة مع عدم اغفال الخيال الذي لا يخل براهنها.

¹ ك. فانسان، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة: عبد الرزاق الأصفر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق،

2009، ص 230. -

- ² ينظر: العربي دحو، إطلاقات مقارب للأدب الجزائري الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة - الجزائر، 2011، ص 24.
- ³ -المرجع نفسه، ص 23.
- ⁴ -أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الطبعة الخامسة، الجزائر، 2007، ص 6
- ⁵ -المرجع نفسه، ص 298.
- ⁶ -عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 92.
- ⁷ -مصطفى عطية جمعة، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة الذات-الوطن-الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان -الأردن، 2010، ص 97.
- ⁸ -المرجع نفسه، ص 97.
- ⁹ -آمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية (من المتماثل إلى المختلف)، دار الأمل، الجزائر، 2006، ص 54.
- ¹⁰ -مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر -دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق -سوريا، ص 89.
- ¹¹ -محمد ساري، محنة الكتابة -دراسة نقدية-، منشورات البرزخ، الجزائر، ماي 2007، ص 116.
- ***محمد ساري:** كاتب وأديب وروائي جزائري، من مواليد فيفري 1958م بشرشال ولاية تيبازة الجزائر، تعلم محمد ساري فن الحكى من والده المجاهد، تحصل محمد ساري على شهادة البكالوريا عام 1976م كما تحصل على شهادة الليسانس عام 1980م، وعلى الماجستير من جامعة الجزائر سنة 1992م، اشتغل بالتدريس الجامعي، له أعمال كثيرة في النقد والرواية والترجمة.....، من أهم أعماله كتاب "محنة الكتابة" عام 2007م، "الأدب والمجتمع" عام 2009م، أما في الرواية نجد "السعير" عام 1986م، "على جبال الظهرة" عام 1988م، "البطاقة السحرية" عام 1997م، "الورم" عام 2002م،.....
- ¹² -مجلة الخطاب، مقالة: سامية داودي، الكتابة الروائية والاجتماعي المتحول قراءة في روايتي "بوح الرجل القادم من الظلام" و"صمت الفراغ" لإبراهيم سعدي، العدد الخامس، 2009، ص 100.
- ¹³ -محمد ساري، الورم، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر العاصمة، 2002، ص 63.
- ¹⁴ -المصدر نفسه، ص 7.
- ¹⁵ -المصدر نفسه، ص 136.
- ¹⁶ - ينظر: آمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية، ص 148.
- ¹⁷ - ينظر: المرجع نفسه، ص 149.
- ¹⁸ -مجلة الخطاب، مقالة: عبد اللطيف حني، الرؤية الجمالية للخطاب السردى المغاربي رواية "مدينة الرياح" لموسى ولد إينو -أتمودجا-، ص 196.
- ¹⁹ -محمد ساري، الورم، ص 31.

- 20- المصدر نفسه، ص 7.
- 21- آمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية (من المتماثل إلى المختلف)، ص 148.
- 22- محمد ساري، الورم، ص 12.
- 23- المصدر نفسه، ص 12.
- 24- المصدر نفسه، ص 50.
- 25- المصدر نفسه، ص 118.
- 26- المصدر نفسه، ص 181.
- 27- المصدر نفسه، ص 185.
- 28- المصدر نفسه، ص 155.
- 29- المصدر نفسه، ص 154.
- 30- المصدر نفسه، ص 240.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الرائد للكتاب، الطبعة الخامسة، الجزائر، 2007.
- 2- آمنة بلعلي، المتخيل في الرواية الجزائرية (من المتماثل إلى المختلف)، دار الأمل، الجزائر، 2006.
- 3- العربي دحو، إطلاقات مقارب للأدب الجزائري الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة -الجزائر-، 2011.
- 4- ك. فانسان، نظرية الأنواع الأدبية، ترجمة: عبد الرزاق الأصفر، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009.
- 5- عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
- 6- مجلة الخطاب، العدد الخامس، 2009.
- 7- محمد ساري، محنة الكتابة -دراسة نقدية-، منشورات البرزخ، الجزائر، ماي 2007، ص 116.
- 8- محمد ساري، رواية "الورم"، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر العاصمة، 2002.
- 9- مخلوف عامر، الرواية والتحويلات في الجزائر -دراسة نقدية في مضمون الرواية المكتوبة بالعربية-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق -سوريا-.
- 10- مصطفى عطية جمعة، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة الذات-الوطن-الهوية، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان -الأردن-، 2010.